

The duality of langue and speech between Paul Ricoeur's interpretations and Abdel Rahman Haj Saleh's equivalents

khalissa bareche¹, salah gueboudj², ahmed belghaba³

¹Université Mohamed Boudiaf - M'sila - Algeria (Department of Literature and Languages)

ORCID iD Link 1(<https://orcid.org/0009-0006-1070-6674>)

²Université 8 Mai 1945 Guelma - Algeria (Department of Literature and Arabic Language)

ORCID iD Link 2(<https://orcid.org/0009-0001-7907-5093>)

³ Université Centre Universitaire Nour Bachir-El Bayadh - Algeria (Department of Humanities and Social Sciences)

ORCID iD Link 3 (<https://orcid.org/0009-0007-0764-1475>)

The Author's Email: khalissa.bareche@univ-msila.dz¹, salahgueboudj@gmail.com², ahmedbelghaba320@gmail.com³

Received: 14/12/2023; Accepted: 20/01/2024; Published: 15/02/2024

ABSTRACT:

The article presents the efforts of researchers Paul Ricoeur and Haj Saleh to highlight the duality of langue and speech in light of anthropological interpretations and linguistic explanations. Paul Ricoeur presented a logical conception of the duality of langue and speech according to the theory of rhetorical interpretation for human thought, and the Algerian linguist Haj Saleh defined the equivalent limits of this duality according to the foundations of situation and usage, and results were drawn, including: There is a relative agreement between the dualisms of language and speech according to Ferdinand de Saussure, the situation and use according to Haj Saleh, and text and discourse according to Paul Ricoeur, but this agreement does not eliminate the difference between them in terms of reference, method and purpose.

Keywords:

Duality; Paul Ricoeur ; Interpretation ; Haj Saleh; Rewards;

ثَنَائِيَّةُ اللِّسَانِ وَالْكَلَامِ بَيْنَ تَأْوِيلَاتِ بُولِ رِيكُورٍ وَمُكَافِئَاتِ عَبْدِ الرَّحْمَانَ الْحَاجِ صَالِحِ

خليصة بارش^{1*}، صالح قبوج²، أحمد بلغابة³

¹ جامعة محمد بوضياف المسيلة، الجزائر

² جامعة 8 ماي 1945 قلالة، الجزائر

³ المركز الجامعي نور البشير البيض، الجزائر

ملخص:

المقال عرضٌ لمساعي الباحثين "بول ريكور والحاج صالح" في إبراز ماهية ثنائية اللسان والكلام في ظل التأويلات الأنثروبولوجية والتفسيرات اللسانية؛ حيث قدم بول ريكور تصوراً منطقياً لثنائية اللسان والكلام من خلال نظرية التأويل الخطابي للفكر الإنساني، كما عمل اللساني الجزائري الحاج صالح على ضبط الحدود المكافئة لهذه الثنائية وفق أسس

1199

الوضع والاستعمال في التراث العربي، وتم استخلاص جملة من النتائج، منها: ثمة توافق نسبي بين ثنائيات اللسان والكلام عند فرديناند دو سوسير، والوضع والاستعمال عند الحاج صالح، والنص والخطاب عند بول ريكور، لكن هذا التوافق لا يلغي الاختلاف القائم بينها من حيث المرجع والمنهج والهدف.

كلمات مفتاحية: ثنائية، بول ريكور، التأويل، الحاج صالح، المكافآت .

مقدمة:

حظي اللسان باعتباره نظامًا بشريًا بتقصٍ واسع، فاللسان يعكس فكر الإنسان ومختلف أحاسيسه المكتوبة، ويعدّ الفيلسوف الفرنسي بول ريكور P.Ricoeur (1913. 2005م) من بين الباحثين الشغوفين برصد العلاقة بين هذا النظام الرمزي وبين استعمالاته المباشرة والاستعارية عند الإنسان، كما كان للباحث اللساني الجزائري عبد الرحمان الحاج صالح الدور البارز في الخلوص إلى ثنائية تُماثل المقولات اللسانية، وتدحض تلك الطروحات المبنية بالطبيعة الإستمولوجية بين اللسان والكلام. كتاب (المحاضرات في اللسانيات العامة)، في إن هذه القضية اللسانية تخيل إلى إعادة قراءة لما جاء في كتاب (المحاضرات في اللسانيات العامة)، في ضوء المخرجات الجديدة التي أطلقها باحثون لسانيون وفلاسفة، ومنه يمكن طرح التساؤلات الآتية: كيف تعامل كلٌّ من بول ريكور والحاج صالح مع ثنائية اللسان والكلام؟ ما القيمة التأويلية الأنتروبولوجية لهذه الثنائية عند بول ريكور؟ هل كانت دعوة الحاج صالح في تعامله مع هذه الثنائية دعوة وصل أم فصل؟ ما المماثلات التراثية التي اقترحها الحاج صالح في مقابل اللسان والكلام؟ عن ثنائيات دو سوسير، فهي تهدف إلى تصويب تعدد الإجابة عن هذه التساؤلات غرض للتصور المعاصر عن ثنائيات دو سوسير، فهي تهدف إلى تصويب لما تم تداوله عن مبادئ اللسانيات البنوية في غياب فهم واعٍ للبنية كسلسلة وحدات تعاقبية يستلزم حضور إحداها حضور الأخرى، وبلوغ الإجابات يتم وفق منهج وصفي، يقوم ببسط بعض التصورات الفلسفية والمقولات التراثية حول ثنائية اللسان والكلام، والنقطة المنهجية في التعامل معها.

1. ماهية الثنائية اللسانية في ضوء كتاب المحاضرات:

شاع في الفكر اللساني الحديث ذلك التصور القائم على جملة من الثنائيات المستنبطة من فكر فرديناند دو سوسير Ferdinand de Saussure (1857. 1913م)، والذي جمع شتاتة كلٌّ من اللسانيين شارل بالي Charles Bally (1885. 1947م)، وألبير سيشهاي Albert Sechehaye (1876. 1946م)، في كتاب (محاضرات في اللسانيات العامة) المنسوب إلى فرديناند دو سوسير، والصادر عام (1916م)، وهو كتاب أسس لدراسة علمية موضوعية للسان البشري.

والدراسة العلمية للسان البشري تنبني على الآليات العلمية، كالملاحظة والفرضية والتجربة والنتائج، وهي آليات وصفية دقيقة، تُسهم في الخلوص إلى نظريات ومنهج جديدة، كما تتسم دراسة اللسان وفق التصور

السوسيري بالموضوعية، فهي تقوم على موضوع واضح، ينتعد فيه الباحث اللساني عن الميولات الذاتية في تقصيه للظواهر اللسانية، وثنائيات دو سوسير هي مجموعة من التقسيمات التي اقترحها دو سوسير، والتي تهدف إلى دراسة علمية تقابلية بين ثنائيات لغوية، من نحو ثنائية اللسان والكلام، الآنية والتعاقبية، التركيبية والاستبدالية، الدال والمدلول، كما هو موضح في الجدول:

جدول 1. ثنائيات دو سوسير:

الثنائيات وماهيتها العامة	
اللسان والكلام	اللسان نظام رمزي مجرد، والكلام هو الأداء الفعلي لهذا اللسان
الآنية والتعاقبية	الآنية دراسة لغوية من خلال مستوى معين، وفي زمان ومكان معينين، أما التعاقبية فهي دراسة اللغة في فترات زمنية متباعدة، بتتبع مختلف مظاهر تطورها والظروف المحيطة بها
التركيبية والاستبدالية	التركيبية هي دراسة للنظام اللغوي من خلال علاقاته الاسنادية، وفق مبدأي التقارب والتجاور، أما الاستبدالية فهي دراسة مبنية على المعجم اللغوي الذهني، من خلال استبدال المفردات وفقا لمبدأ تداعي الأفكار
الدال والمدلول	الدال هو مجموع الصورتين الصوتية والسمعية للوحدة اللغوية، أما المدلول فهو التصور الذهني عن ذلك الدال
الاعتباطية والخطية	الاعتباطية ترمز إلى العلاقة بين الدال والمدلول بحسب دو سوسير، وتعني العلاقة غير المبررة أو غير الالزامية، أما الخطية فهي صفة تميز اللسان البشري، وتحيل إلى المجال الفيزيائي لانتقال الأصوات، بحيث لا يشترك صوتان في مجال واحد
البنية والنظام	البنية تتشكل من سلسلة الوحدات اللسانية، أما النظام فهو الذي يحكم العلاقات القائمة بين هذه الوحدات اللسانية

المصدر (من إعداد الباحثين)

وبهذا تشكلت اللسانيات وفق نظام مزدوج بين وحدتين، فسرها المطلعون على كتاب المحاضرات تفسيراً فاصلاً، فاللسان انطلاقا من تفسيرهم ينفصل عن الكلام (الحريري، 2023)، وذلك لوجود عدّة نقاط تباين بين الاثنين، كما هو موضح في هذا الجدول:

جدول رقم 2. بعض أوجه التباين بين ثنائية اللسان والكلام:

الكلام	اللسان
فردى	اجتماعى
متغير	ثابت
إبداعى	متواضع عليه
مادى	مجرد

المصدر (من إعداد الباحثين)

وتطور مع الوقت التعامل مع ثنائية اللسان والكلام، فتعاملت معها المدرسة النسقية انطلاقاً من ثنائية (المحتوى والتعبير)، وتعاملت معها المدرسة التوليدية التحويلية انطلاقاً من ثنائية (الكفاءة والأداء)، كما تعاملت معها الفلسفة التأويلية انطلاقاً من ثنائية (النص والخطاب) وغير ذلك من المماثلات، وفكرة النص والخطاب حاضرة في فكر المدرسة البنوية، التي نظرت إلى النص "بوصفه (جزيرة)، مفصول عن محيطه الثقافي، والتاريخي؛ أي بوصفه إشارات، وعلامات لا تحيل إلى أي شيء بقدر ما تحيل إلى نسق بنوي لا شعوري، مسكون في اللغة" (واحك، 2022، صفحة 103)، فالنص انطلاقاً من التفكير البنوي هو مجال مغلق، يتم عزله عن مختلف ظروف إنتاجه، بما في ذلك منتج النص، ومعنى النص هو القيمة الناتجة عن تأويل المتلقي؛ أي لا يملك النص معنًا حتى تتم قراءته وتأويله، وهذا يكتسب النص عدّة معانٍ بتعدد قراءاته الخطاب بمفهوم زليغ هاريس (Zellig Harris، 1909 . 1992م)، مجال تواصلى "يستمد مقوماته من المدرسة التوزيعية" (موساوي، 2019، صفحة 105)؛ أي تلك الدراسة الشكلية القائمة على تحديد تموضع الوحدات اللسانية داخل الخطاب، والذي تميز به تحليل هاريس هو دعوته إلى تجاوز الأطر اللغوية إلى أطر غير لغوية . ثقافية واجتماعية وسياسية وغير ذلك . فالخطاب "يرتكز على مجموعة من المرجعيات والآليات التي تحيل إلى خارج الخطاب، وفي هذا المجال يرى هاريس أن التحليل يجب أن يتسم بالموضوعية وينطلق من النص" (موساوي، 2019، صفحة 105)، وهو بهذا يربط بين الخطاب والنص، والذي يحيل بذاته إلى ارتباط بين اللسان والكلام، وبين الدال والمدلول، وغيرها من الثنائيات.

ومع ملاحظة قصور ما ورد في كتاب المحاضرات عن تفسير ثنائيات دو سوسير، حاول بعض الباحثين اللسانيين العودة إلى مخطوطات دو سوسير ومقارنتها بما ورد في هذا الكتاب، وتوصلوا إلى أنّ اللسان

ليس "كل" قائم بذاته" (سوسير، 1987، صفحة 18)؛ أي لا يمكن دراسة اللسان بمعزل عن مختلف الثنائيات اللسانية، فالكلام امتداد للسان، والدال والمدلول يشكلان ماهية العناصر اللسانية في المجتمع البشري، واللسان يقوم على مبدئين، أحدهما آني يتخذ مجالا أفقيا، وآخر تعاقبي يتخذ مجالا عموديا، ولا يمكن وصف ظاهرة لسانية دون التعامل معها بشكل عمودي وأفقي معا، وفي حضور العلاقات التركيبية والاستبدالية جنبا إلى جنب؛ لأنّ الكشف عن دقائق الظواهر يكون من خلال دراستها من مختلف جوانبها وليس من جانب واحد، فاللسان "دائما جانب مزدوج يقابل فيه ما هو فردي ما هو اجتماعي" (غلفان، 2017، صفحة 114). ويتسم بالاستمرارية، فكل "لسان يُكلم به هو استمرار للسان آخر سابق عليه" (غلفان، 2017، صفحة 49)، فاللسان سلسلة ألسن، تأخذ من كل عصر، وتتأقلم مع احتياجات المتكلمين على اختلاف ذهبتاتهم ويعصرونهم اللساني المستمر أثبت الحركية المستمرة للألسن والمستمدة من "طبيعتها الاجتماعية الملازمة لها وليس من أي شيء آخر، فاللسان جزء من تاريخ الإنسان ومن ثقافته" (غلفان، 2017، صفحة 27)، والكلام بعدّه حالة دينامية تمثل انعكاس لبعض خصوصية النظام اللساني وقواعده؛ "ولأنّ اللسان كما هو معروف يُشكّل العضو الأساس في جهاز النطق الإنساني، فقد استخدم للدلالة على اللغة" (قنيبي، 2018، صفحة 14).

2. القيمة التأويلية الأنثروبولوجية لثنائية اللسان والكلام عند بول ريكور:

بول ريكور من فلاسفة القرن العشرين، فرنسي الأصل، قدّم أعمالاً قيّمة في الفلسفة والأدب والسياسة وعلم الاجتماع، وصل عدد مقالاته المنشورة إلى خمسمائة مقال، وغلب على أعماله الفكر الأنثروبولوجي؛ لأنّه كان شغوفاً بفهم الذات البشرية وإبراز قدراتها، وفهم الذات الإنسانية يبدأ من فهم أفعال البشر التي تجسدها أقوالهم، لهذا انصبّ اهتمام بول ريكور على لغة الخطاب والنص، واستنباط مختلف التأويلات الممكنة بول ريكور ما جاءت به الدراسات البنوية حول الرموز والأساطير؛ وذلك لأنّها "لا تهتم بالبعد الدلالي والخيالي من النص، بل تهتم بالبحث عن النسق غير الواعي" (واحك، 2022، صفحة 113)، والفيلسوف والمنظر بول ريكور عُرف بنظريته التأويلية لثنائية النص والخطاب، فالنص عنده هو نظام لغوي مكتوب أو منطوق، يتسم بالثبات ويخضع لقواعد متواضع عليها، فهو يقابل اللسان من حيث هو نظام اجتماعي مشترك بين الجماعات البشرية، وهذا النظام يخضع لتأويلات عدّة، تتحكم فيها خلفيات ثقافية واجتماعية وغير ذلك، أما الخطاب فهو النص في شكله المستعمل؛ أي نقل للنص من الثبات إلى السيورة، وهو بهذا يقابل الكلام في أدائه الفردي بين المخاطبين، وهو يخضع لمعايير القصدية والمقبولية والسياقية وغير ذلك، سنوضح ذلك من خلال الرسم التوضيحي المدرج أدناه:

رسم توضيحي 1: يفسر المجال التأويلي لثنائية اللسان والكلام



المصدر (من إعداد الباحثين)

فالخطاب في رأي ريكور يتمثل في "عملية تلفظية حيوية في الزمان والمكان، يديرها شخصان أو أشخاص بالكلام" (جغبو، 2017، صفحة 157)؛ أي أنّ الكلام وسيلة الخطاب، يستعين بها أفراد الخطاب في عملياتهم التواصلية، وتقوم على الفهم والإفهام، "والفهم في عموم الاستعمال متوقف على فهم المقصد الذي قصده المتكلم" (الحق، 2014، صفحة 98)، وهذا يؤكد ما ذهب إليه هذا الفيلسوف بول ريكور حول عدم وجود الخطاب لأجل "تمجيد ذاته، بل هو يحاول في كل استخداماته نقل تجربة ما إلى اللغة" (ريكور، 2006، صفحة 08)، ويتم الوصول إلى هذه التجربة من خلال آليات الفلسفة، وحسب ريكور "الفلسفة الحقيقية هي تلك التي تحمل في مضمونها خطابا فعالا حول الإنسان يحمل مشروعاً" (شرماط، 2022، صفحة 465)، لهذا خصّه ببحث مستفيض، وهو عنده يقابل كلام الإنسان (واحك، 2022، صفحة 105)، وهذا الكلام مرتبط بزمن معين يتم استعماله فيه، عكس اللسان المتصل بمحمولة لغوية رمزية مستقلة. زمانا ومكانا. مثله مثل النص؛ لأنّ اللسان تحكمه قوانين الجماعة، والامر ذاته مع النص، يخضع لضوابط النصية التي تجعل من المقولات اللغوية نصوصا، ويشارك كل من النص والخطاب في أنّهما يفترضان متلقيا، تكون هوية المتلقي في الخطاب محددة، بينما تكون في النص مفترضة، وقد يتحول النص إلى خطاب كما يتحول اللسان إلى كلام، فالعلاقة بين هذه الثنائيات علاقة تكاملية، وهذا ما سعى ريكور إلى إثباته وفق معادلة تشمل: النص = الإنسان؛ بحيث الإنسان يشمل: صاحب النص + متلقى النص، و الخطاب = استعمال المتلقي للنص. ذهب إليه ريكور يدحض الطروحات البنوية الداعية إلى الفصل بين النص والخطاب، ومن جهة أخرى يتفق معها في ضرورة التعامل مع النص بعيدا عن ظروف إنتاجه؛ أي وفق فرضية موت المؤلف، ومما لا شك فيه أنّ كتاب (الاستعارة الحية) لريكور أسهم "في ردّ المسلمات التي ركنت إليها اللسانيات التي استمدت عددا من أسسها من كتاب المحاضرات في اللسانيات العامة، ولعل أهم هذه الأسس الفصل بين اللسان والكلام" (زواوي، 2021، صفحة 106)؛ بحيث أصبح يُنظر إليهما على أنّهما وجهان لعملة واحدة.

أيقن بول ريكور أنّ اللسان والكلام لا يمكن فصلهما تماما؛ لأنّهما يتشابكان معا في التأويل، وفعل التأويل الذي يقصده ريكور هو عملية فهم معنى المعنى، وتعبير آخر هو بلوغ المعنى المضمر للخطاب أو النص، وتأويل "المضمر أحد قوانين الخطاب المستمدة من الاستعمال" (دراقوي، 2018، صفحة 152)، وهو يتجاوز فعل الترجمة؛ لأنّه يقوم على مبدأ التشابه والتقارب لا مبدأ التطابق بين المعنى والتعبير، كما يتطلب تفاعلا بين أطراف الخطاب، وبين السياق والنص، وذلك لأجل إعادة تشكيل ثنائية الخطاب والنص بشكل يكون مفهوم ومقبول للقارئ، وذلك في إطار فلسفي تأويلي، قوامه اللغة البشرية القابلة للفهم والتفسير، فتأويلية ريكور "أشبه بكثير تلك المعركة الفلسفية التي ينبغي خوضها من أجل استعادة ماضي الفلسفة وعيها، من إنجديد (هلال، 2018/2019، صفحة 194) التأويل، التي تتعلق بالعلاقة بين اللغة (اللسان) والمعنى، وبين النص والفهم، ريكور يرى أنّ اللغة هي مجال جدلي بين الوضع والاستعمال، أو بين اللسان والكلام، وأنّ التأويل هو عملية تكشف عن المعاني الخفية أو المتعددة في النصوص، وهو يرى أنّ التأويل حالة خاصة من حالات الفهم، ويتخذ عدّة أوجه ومستويات، من أمثلة ذلك:

2 . 1 . تأويل الرمز: حيث خصّ ريكور الرمز بمجال دراسة خاصة، ونظر إلى الرمز على أنّه يشمل معنًا مزدوجًا، أحدهما حرفي والآخر استعاري، مثال عن ذلك: كلمة (حمامة)، فهي تحيل إلى نوع من الطيور، كما تحيل أيضا إلى دلالة السلام، فريكور يؤكد على حاجة الرمز إلى التأويل؛ لأنه يحمل معاني ضمنية، مثلا: رمز (الثعبان) في الأساطير والأديان يمكن أن يحمل معاني متضادة، مثل الشر والحكمة، الموت والحياة، لهذا وجب على القارئ اعتماد منهجية تفسيرية تستند إلى السياقات التاريخية والثقافية والاجتماعية وغير ذلك.

2 . 2 . تأويل البنية: حيث استفاد ريكور من اللسانية، ولا سيما ما يتعلق بالبنية الجدلية للتأويلات، فهذه الأخيرة تقوم مقام النسق الذي تتألف وحداته بشكل منتظم؛ أي أنّ التأويلات لا تتصارع بل تتشابك، مثلها مثل الثنائيات اللسانية؛ لأنّ بلوغ فهم كلي يقتضي الازدعان إلى مختلف تأويلات النص، على سبيل المثال: عبارة (باب المسجد مغلق)، تحتل عدّة تأويلات، منها:

- وقت الصلاة لم يحن بعد.
- الإمام غائب عن المسجد.
- حدثت مشكلة في الباب لهذا لم يفتح.
- أهل المنطقة لا يصلون... إلخ.

وجملة هذه التأويلات تعمل في مجال تأويلي أشمل يأخذ في عين الاعتبار مختلف الظروف المحيطة بالمسجد، للوصول إلى التفسير السليم .

2 . 3 . تأويل المعنى: ريكور سعى من خلال كتاباته إلى إثبات استقلالية المعنى في النص عن مقصدية صاحب النص، فعند قراءة قصيدة (نهار الثلاثاء) لمحمود درويش مثلاً (درويش، دون تاريخ):

نهار الثلاثاء، والجو صافٍ
أسيرُ
على شارع جانبي مُغطى
بسقف من
الكستناء... أسير خفيًا
خفيًا كأني
تبخرت من جسدي، وكأني
على موعد
مع إحدى القصائد، أنظر في ساعتى
شاردا. أتصفّح أوراق غيم
بعيد.

فتأويل هذا النص الشعري وفق بول ريكور يكون من خلال مختلف السياقات التاريخية والثقافية والاجتماعية والسياسية الحالية، ومنه يمكن تأويل النص على نحو أنّه وصف للعدوان على غزة المحتلة، فعبارة (نهار الثلاثاء)، والنهار وضوح، والوضوح رؤية، فأمام أعين العالم تم القصف، وصورة الجريمة الشنيعة تقوم على ثلاثة محاور، وهم (فلسطين، إسرائيل، العالم)، و(الجو الصافي) دلالة وضوح مقاصد المحتل، وأنّه تعمد الإبادة الشاملة لهذا الشعب العربي المسلم، لهذا لم يسلم المستشفى من جورهم. وقول الشاعر (على شارع جانبي مغطى بسقف من الكستناء)، هذا البيت يجعلنا نستحضر صور الشهداء المتناثرة هنا وهناك، وشجرة الكستناء المثمرة في شهر أكتوبر تحيل إلى أرواح الأطفال الذين تم جني أرواحهم قبل نضوجها في شهر أكتوبر (2023م)، وقوله (أسير خفيًا... خفيًا كأني تبخرت من جسدي)، إنّ هذا التعبير يصف بدقة حالة الأرواح البريئة حين سارت في موتها، متحررة من أجسادها، ومن كل الظلم الذي حلّ بها، هي ذاهبة إلى ربها خفيفة، لا تحمل ذنوب الكبار، كأنها على موعد مع العدالة الإلهية؛ حيث لا يظلم عنده أحد، ويضيف الشاعر قائلاً: (أنظر في ساعتى شاردا. أتصفّح أوراق غيم بعيد)، والشroud ذهول في الموجود وتأمل في المأمول، في الساعة التي تم فيها القصف، بين أمل في الحياة وتحتضانه المواتر القاتم، لتبين لي اسمها في أول شيء أكل أرثي. محمود درويش من قصيدته، هو تأويل يستنبط المعنى في ظل السياقات الحالية، أو بتعبير بول ريكور في ظل الاستعارات الحية، وهي استعارة تأويلية تربط أنظمة اللسان بمقاصدها الكلامية، وتستلزم معرفة بقوانين الوضع اللساني ومختلف استعمالاته.

وبين التأويلات الثلاث التي اعتمدها بول ريكور (تأويل الرمز، تأويل البنية، تأويل المعنى) تنكشف عدّة تمظهرات لثنائيات سوسيرية، مثلا:

تأويل الرمز + تأويل المعنى = الدال والمدلول

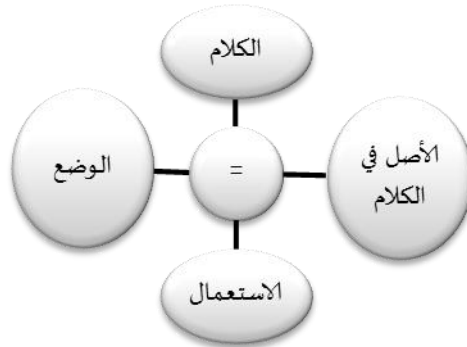
تأويل الرمز + تأويل البنية = اللغة واللسان

والدمج بين هذه التأويلات في ظروف الاستعمال ينتج الكلام أو الخطاب .

3. المكافئات التراثية التي اقترحها عبد الرحمان الحاج صالح في مقابل اللسان والكلام:

أكدت المساعي اللسانية للجزائري عبد الرحمان الحاج صالح على ضرورة العودة إلى التراث اللغوي العربي، وتفسير هذا التراث انطلاقا منه؛ أي تفسير التراث بالتراث، وهو بهذا يفند تلك القراءات التي انطلقت من المنجز اللساني المعاصر لتفسير المنجز اللغوي القديم، وما قام به هذا اللساني الجزائري أعاد للتراث اعتباره، وأثبت من جهة أخرى أصالته، والمتأمل فيما جاء به الحاج صالح يدرك قيمة ثنائية (الوضع والاستعمال) في الكشف من منهج العرب اللساني، كما إنّه تأسيس لعدّة علوم تحكمها آليات الفهم والإفهام، كالفلسفة والمنطق والأنثروبولوجيا والرياضيات وغير ذلك (اللسان والكلام)، فإنّ التراثيين اللغويين العرب انطلقوا من ثنائية الوضع والاستعمال في ظاهرتي الخطاب والتخاطب، فكل خطاب نظام رمزي تحكمه قوانين الجماعة، وكل تخاطب استعمال للغة في وضع تخاطبي (حراوي، 2022، صفحة 526)، أما سيبويه فقد استخدم "للدلالة على مفهوم الوضع مصطلحا آخر، لكن بالمعنى ذاته، وهو (الأصل في الكلام) مقابل الكلام، فالأصل في الكلام هو الوضع، أما الكلام فهو الاستعمال" (زرال، 2021، صفحة 404)، وسنوضح ذلك من خلال الرسم التوضيحي المدرج أدناه:

رسم توضيحي 2 : تصور سيبويه لثنائية الوضع والاستعمال



المصدر (من إعداد الباحثين)

ويعدّ كلٌّ من الوضع والاستعمال "مبدأً أساسياً في الدراسة اللسانية التراثية والمعاصرة في كل مستوياتها، ونقصد بالوضع في هذا المقام النظام اللغوي في مقابل الاستعمال الذي نقصد به استعمال الناطقين لهذا النظام" (حمراوي، 2022، صفحة 525)، فنحن نتعامل مع هذه الثنائية انطلاقاً من ميدان لساني تخصصي، أما مفهوم الوضع اللغوي من الناحية الفلسفية، فيتضمن "معنى الاتفاق (الضمني) بين أفراد الجماعة الناطقة بلغة من اللغات، ولا يوجد مثل هذا عند سيويه، إلا أنّ هذا التصور الفلسفي مع مفهوم الوضع يقتضيان معاً. كما رأينا. معنى التأسيس على مستوى المجتمع ولمصلحته؛ لأنّ التأسيس هو معنى قديم في استعمال العرب للفظه الوضع، فقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُوَ الْعِلْمُ الْعَمَلُ﴾" (صالح، دون التوضيح، ص 25). (العربية) للحاج صالح، نلاحظ أنّه أحاط مصطلح الكلام بمجالٍ دلاليٍّ واسعٍ، وفي المقابل جعل مصطلح الخطاب أضيق منها، فحسب اعتقاده "للكلام مدلولات لا دخل للخطاب فيها" (صالح، دون تاريخ، صفحة 16)؛ وعليه من الخطأ مقابلة الخطاب بالكلام، وذلك لأنّه للخطاب "مدلول آخر اختص به دون الكلام. ولا يقوم مقامه حينئذٍ إلا لغرض. وهو معنى الحاجة والجدل ومحاولة إقناع الغير" (صالح، دون تاريخ، صفحة 16)، فالكلام خطاب إذا كان استدلالياً يدخل نطاق الحاجة الخطابية.

إنّ ما أورده الحاج صالح يؤسس لبعض القطاعات المفهومية بين مصطلحي الخطاب والكلام، لكنه يقرب بين اللسان والكلام، فالحاج صالح يعدّ "الجانب الاستعمالي للغة هو الجانب المحسوس المشاهد المسموع، وهو بالتالي ما يوجد من اللغة في الواقع، أما الوضع فلا وجود له في هذا الواقع إلا مندجاً مع ما يُسمع ويُلفظ، فوجوده صوري؛ لأنّه نظام للغة" (صالح، دون تاريخ، صفحة 73)، ونظام اللغة لسانها، واللسان منظومة مجردة، لا وجود لها إلا في مستويين، مستوى ذهني، وآخر مادي يعكسه الكلام، فالوضع لسان،

والاستعمال كلام حسب مفهوم الحاج صالح، وهذه هي الثنائية التي قابل بها الحاج صالح ثنائية دو سوسير: الصرفية والبلاغية وغير وإذا أردنا التمثيل لثنائية الوضع والاستعمال، يمكن القول إنّ القواعد النحوية والصرفية والبلاغية وغير ذلك من القواعد التي تحكم تركيب الكلمات والجمل تنتمي إلى مستوى اللسان (نظام الجماعة البشرية)، بينما التطبيق الفعلي لهذه القواعد في إنشاء نصوص شفوية أو كتابية تنتمي إلى مستوى الكلام (أداء الإنسان المفرد)، كما أنّ المعجم الذي يشكل مجموعة من المفردات والمعاني (دوال ومدلولات) تمثل جزءاً من اللسان، بينما الانتقاء من هذا المعجم لأجل موقف تواصلية معين يشكل جزءاً من الكلام، أما التصحيح والتدقيق اللغوي هما عمليتان تستندان إلى قواعد ومعايير تخص اللسان، بينما التأليف والإبداع عمليتان تستندان إلى المهارات الكلامية.

وثنائية اللسان والكلام في مقابل الوضع والاستعمال يمكن تفسيرها من خلال النصوص الشعرية، على سبيل المثال:

3. 1 . الشعر الكلاسيكي أو التقليدي: وهو شعر يتبع قواعد محددة من حيث الوزن والقافية والبحر والموضوع، هذا الشعر ينتمي إلى مستوى اللسان؛ لأنه يستخدم نظاما لغويا ثابتا ومتفقا عليه بين الشعراء والقراء، مثال عن هذا الشعر : قصيدة(البردة)، للإمام البوصري(ت839هـ) (الصفدي، 2022):

أَمِنْ تَدَكَّرِ جِيرَانٍ بَذِي سَلِيمٍ
مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مَقْلَةٍ بَدَمٍ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمٍ
فَمَا لِعَيْنِكَ إِنْ قُلْتَ أَكْفَا هَمَّتَا
وَمَا لِقَلْبِكَ إِنْ قُلْتَ اسْتَفَقَ يَهُمٍ
أَيُّحَسِبُ الصَّبُّ أَنَّ الحُبَّ مُنْكَتِمٌ
مَا بَيَّنَّ مُنْسَجِمٌ مِنْهُ وَمُضْطَرِمٌ

هذه بعض أبيات البردة، تخضع للوزن من البحر البسيط، والقصيدة الكلاسيكية تحكمها قوانين تداولتها الألسن العربية، فلا يجوز الإخلال بها، وهي مثل اللسان الذي يتم التواضع عليه بين الجماعات البشرية، وهو يمثل هوية تلك الجماعة، والخروج عن ما هو مألوف في الألسن يعرض صاحبه لتهمة اللحن

3. 2 . الشعر الحديث أو المجدد: وهو شعر يتجاوز أو يخالف القواعد الشعرية التقليدية، ويستخدم لغة جديدة أو مبتكرة، ويتناول موضوعات مختلفة أو مثيرة للجدل، هذا الشعر يتحرر من الوزن والقافية، وينتمي إلى مستوى الكلام؛ لأنه يعبر عن شخصية وإبداع ورؤية الشاعر الفردي، مثال عن ذلك:

قصيدة(الليل يسأل من أنا) لنازك الملائكة:

الليل يسأل من أنا
أنا سرُّه القلق العميق الأسود
أنا صمته المتمرد
فنعثُ كنهى بالسكون
ولفقتُ قلبى بالظنون
وبقيتُ ساهمةً هنا
أرنو وتسألنى القرون
أنا من أكون؟

هذه بعض أبيات القصيدة، وتجدر الإشارة إلى أن نازك الملائكة من الشعراء المحدثين الذين تبنا مبدأ الحرية في تأليف أشعارهم، واقتنعوا بضرورة تجاوز بنية الشعر العربي القديم من حيث اللغة والتصوير البياني والإيقاع وغير ذلك، و الإيقاع يعدّ نواة التغيير في القصيدة العربية؛ حيث تم الانتقال من النظام العمودي إلى النظام الحر الذي تجاوز قواعد الوزن والقافية والروي (الفصيح، دون تاريخ).

3.3 . الشعر المتفاعل أو التفاعلي: هو نوع من الشعر يتفاعل مع المتلقي والمحيط، ويستخدم وسائل متعددة أو تقنيات حديثة من نحو الحاسوب، ويسمح بالتغيير أو التحديث أو التفسير، هذا الشعر يجمع بين مستوى اللسان ومستوى الكلام؛ لأنه يستخدم نظاماً لغوياً متغيراً ومتفاعلاً مع الظروف المحيطة بالنص الشعري ومع مختلف المتلقين المشاركين في النظم، ومن أمثلة الشعر التفاعلي: قصيدة (تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق)، للشاعر العراقي عباس مشتاق معن، من أبياتها:
يا وطني المحاصر بالعمى

من أين لي بقميص الوتر الذي خاطته لي كف النخيل؟
وأنا التي تخضّر في شفتي أهداب الرحيل.

ولهذا النوع من الشعر ضوابطه الخاصة، كضابط التأويل؛ لأنّ التأويل ممارسة حية في تلقي كل نص (خفيف، 2021، صفحة 450)، كما يخضع أيضاً للإبحار، وهو نوع من الاستعمال للروابط التفاعلية وآليات التشكيل والكتابة، فالشعر التفاعلي نوع من الاستعمال الشعري تتدخل فيه آليات الرقمنة بمختلف وسائلها كالصورة والصوت والحركة وغير ذلك، "لذا لم يعد الشاعر شاعراً فقط بل صانعاً للنص، ولم يعد المتلقي متلقياً فقط بل مشاركاً في صنع النص ومُستعمِلاً للحاسوب ببرامجه" (خفيف، 2021، صفحة 450)، وهذا النوع من الشعر يستثمر الأنظمة اللسانية المتواضع عليها، وتلك الخلفيات الكلامية التي تحركها مقاصد المشاركين في تحريره.

وبشكل عام، هذه النصوص الشعرية تبرز جوانب مهمة من ثنائية الوضع والاستعمال المستنبطة من التراث اللغوي العربي، والتي عاجلها الحاج صالح في مؤلفاته، كما تُظهر بشكل جلي معالم النص والخطاب في ظل التأويل الذي استند إليه بول ريكور في تحليلاته الفلسفية والأنثروبولوجية، كما إنّها تحدد معالم الثنائية السوسرية (اللسان والكلام) وتظهراتها المتعددة، ويمكن القول، إنّ هذه النصوص تبرز من جهة ذلك التمايز بين جانب مجرد وجانب مادي في دراسة اللغة والأدب، كما أنّها بيّنت من جهة أخرى مواضع التفاعل بين جانب ثابت وجانب متغير في دراسة المعنى، إذن، يمكن القول، إنّ هناك توافق نسبي بين ثنائية اللسان والكلام عند اللساني السويسري فرديناند دو سوسير، وثنائية النص والخطاب عند الأنثروبولوجي والفيلسوف الفرنسي بول ريكور، وثنائية الوضع والاستعمال عند المفكر اللساني عبد الرحمان الحاج صالح، لكن هذا التوافق لا يلغي الاختلاف القائم بينها من حيث المرجع والمنهج والهدف.

خاتمة:

كان هذا البحث حول ثنائية اللسان والكلام بين التأويلات الأنثروبولوجية لدى بول ريكور وتماثلات عبد الرحمان الحاج صالح، وتم استخلاص جملة من النتائج، أبرزها:

- تشبع الفكر الفلسفي لدى بول ريكور بالمفاهيم اللسانية البنوية، وهذا ما يفسر تصوره عن النص والخطاب، إذ نلمح مواطن التوافق الجزئي بين ثنائية بول ريكور وثنائية دو سوسير، فالنص وإن كان يتقاطع مع اللسان في مبادئه وسماته، غير أنّ اللسان أعم من النص، فالنص جزء مستل من اللسان ليس إلا، أما الكلام فهو أعم من الخطاب أيضاً؛ لأن كل خطاب كلام، لكن ليس كل كلام خطاب. وبين النظام اللغوي فكرة الوضع والاستعمال هي فكرة لسانية تتعلق بالعلاقة بين اللسان والكلام، وبين النظام اللغوي والاستخدام الكلامي، وذلك عند النحاة العرب، الذين أطلقوا على اللغة (اللسان) اسم الوضع، وعلى الكلام اسم الاستعمال، وهذه الفكرة تبرز أهمية دراسة اللغة في سياقاتها المختلفة، وحاول الحاج صالح قراءة هذه الفكرة من منظور حديث، مستفيداً من المصادر التراثية والمعاصرة، وسعى إلى توضيح دور الوضع والاستعمال في تشكيل الخطاب والتخاطب، كما قام بتحليل المسائل اللغوية في ضوءها،
- تكاليفه في السليح الخبر والانتباه، العامل، الرغبة، ذلك اللغوي العربي تسبق ثنائية دو سوسير، وثنائية بول ريكور أيضاً، غير أنّ ثنائية دو سوسير تمكنت من وضع أسس لها في البحث اللساني العالمي، ولا يمكن الجزم بأنّ الثنائيات متطابقة أو متلازمة، فثمة اختلافات بارزة بينهما تتعلق بطرائق التحليل، كما تتباين أهداف أصحاب الثنائيات، فدو سوسير كان يسعى من خلال ثنائيته إلى إرساء علم جديد لدراسة الظواهر الألسنية، وذلك بشكل مستقل عن علاقتها بالأشياء والأفراد، أما بول ريكور فتخطت اهتماماته الحقل اللساني إلى مجالات معرفية تنبني على التأويل في تفسير الميادين المختلفة، في حين سعى الحاج صالح إلى التأسيس لفكر لغوي تراثي يرتقي إلى مصاف العالمية لما يتمتع به من أسس معرفية من التوصيات التي خرج بها هذا البحث، ضرورة فتح المجال للتلاقح المعرفي والمنهجي بين ومنهجية. التخصصات الجامعية؛ لأنّ هذا يسهم بشكل أساس في الرقي الذي تطمح إليه الجامعات ومختلف المؤسسات.

قائمة المراجع:

- [1] أرشيف منتدى الفصيح. (دون تاريخ). سؤال حول قصيدة نازك - المكتبة الشاملة الحديثة. تاريخ الاسترداد 10 20 2023، من <https://al-maktaba.org/book/31862/10896#p50>.
- [2] أمينة جنحي وصلاح الدين ززال. (2021). ثنائية الوضع والاستعمال عند عبد الرحمان الحاج صالح من خلال كتابه الخطاب والتخاطب. مجلة القارئ للدراسات الأدبية واللغوية والنقدية، جامعة الوادي، مج: 04 (ع: 04).
- [3] حامد الصفدي. (04 08 2022). قصيدة البردة للإمام البوصري. تاريخ الاسترداد 10 20 2023، من موقع موضوع: <https://mawdoo3.com>.

- [4] حامد صادق قنيني. (2018). التأصيل العربي بين ألفاظ اللسان واللغة واللهجة. مجلة التواصل في اللغات والآداب، جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، مج: 04 (ع: 04).
- [5] حمراوي م. (2022). اللغة بين الوضع والاستعمال واللفظ والمعنى. مجلة ألف اللغة والإعلام والمجتمع، جامعة الوادي، مج: 09 (ع: 01).
- [6] خليفي عبد الحق. (2014). دراسة لسانية في بنية الخطاب عند أحمد المتوكل، مجلة الممارسات اللغوية، جامعة تيزي وزو، الجزائر، مج: 05 (ع: 01).
- [7] ريكور ب. (2006). الزمان والسرد التصوير في السرد القصصي، تر: فلاح رحيم (Vol. 01، ج : 02) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- [8] زهرة خفيف. (2021). جماليات القصيدة التفاعلية "تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق" لعباس مشتاق معن أنموذجا. مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، الجزائر، مج: 15 (ع: 20).
- [9] زواوي م. (2021). مسائل في تلقي النظرية السوسيرية (Vol. 01 الجزائر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة).
- [10] صالح ع. ا. دون تاريخ. الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية. الجزائر: سلسلة علوم اللسان عند العرب.
- [11] عبد الحميد الحيري. (06 08, 2023). التزامن والتعاقب عند سوسير. تاريخ الاسترداد 18 10, 2023، من موقع موضوع: <https://mawdoo3.com>
- [12] فائزة شرماط. (2022). أزمة المعنى وفلاسفة الشك عند بول ريكور. مجلة دراسات، جامعة بشار، الجزائر، مج: 13 (ع: 01).
- [13] فردناند دي سوسير. (1987). محاضرات في علم اللسان العام، تر: عبد القادر قنيني (المجلد د ط). مصر: دار إفريقيا الشرق.
- [14] فريدة موساوي. (2019). مفهوم تحليل الخطاب عند زيليج هاريس. مجلة إشكالات في اللغة والأدب، جامعة تامنغست، الجزائر، مج: 08 (ع: 04).
- [15] محمود درويش. (دون تاريخ). الديوان (فلسطين) محمود درويش: نهار الثلاثاء. تاريخ الاسترداد 19 10, 2023، من موقع الديوان: <https://www.aldiwan.net/poem9350.html>.
- [16] مختار درقاوي. (2018). القواعد التداولية في ضوء ثنائية الخطاب والتخاطب. مجلة دراسات لسانية، جامعة البليدة 2، مج: 02 (ع: 11).
- [17] مريم بوقرة وصورية جغبو. (2017). الخطاب، مفهومه، أنماطه، وظيفته... من وجهة نظر الوظيفية. أحمد المتوكل أنموذجا. مجلة تاريخ العلوم، جامعة زيان عاشور الجلفة، (ع: 10)

- [18] مصطفى غلفان. (2017). اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول (المجلد ط01). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- [19] هلال و. ب. (2018/2019). الارتياحية في تأويلية بول ريكور، أطروحة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة دكتوراه الطور الثالث في شعبة الفلسفة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد ملين دباغين، سطيف2.
- [20] واحك م. (2022). نظرية الخطاب عند بول ريكور، مجلة الفكر المتوسطي. مجلة الفكر المتوسطي، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، مج:11(ع:02).